ومن المطابع التي اشتهرت في الاستانة منذ نحو اربعين سنة مطبعة الجوائب نُشرت فيها تآليف جليلة كالجاسوس على القاموس وديوان البحتري وديوان الطغرائي وديوان العباس بن الاحنف ونقد الشعر لقدامة بن جعفر ورسائل الخوارزمي والهمذاني والموازنة بين ابي تمّام والبحتري ومقامات السيوطي وامثال العرب للضبّي ونثار الازهار في الليل والنهار ودرّة الغوّاص للحريريّ مع شرحها للخفاجي وتحفة الطرف في علم الصرف للميداني وادب الدنيا والدين للماورديّ ورسائل شتى لابن سينا والثعالبي والمقريزي وغيرهم وكلُّها بحرف مُشرق جلي وورق صفيق

هذه لمعة في تاريخ طباعة الاستانة اثبتناها بغاية ما امكن من الايجاز . ويلحق بها تاريخ المطابع التي أُنشئت في اوائل القرن التاسع عشر في اسكدار وازمير وقبرخانه غير انَّ المطبوعات التي خرجت منها قليلة وهي كلُّها تركيّة واكثرها دينيّة . واذا اضفتَ الى هذه المنشورات عدداً كبيراً من الجرائد التي اخذت في الشيوع منذ ستين سنة فهمت ما اصابتهُ الاستانة العليّة من الترقي والنجاح الادبي في ظلّ السلاطين العظام ثبّت الله اركان دولتهم مدى الاعوام (ستأتي البقيّة)

السفر العجب الى بلاد الذهب

للاب اميل رينو اليسوعي (تابع لما سبق)

الفصل الرابع

في الغرق

وبعد مضيّ اربع وعشرين ساعة خمد هياج الزوبعة قليلاً وسكن ثائر الامواج وهدأت الريح بعض الهدوء وزال ذلك الاضطراب الشديد الذي كان يتلاعب بالسفينة ويوشك ان يكسرها ويصيرها حطاماً . غير انَّ اماثر القلق بدت على وجه الرُّبان لأنهُ رأى انَّ السكّان (الدفّة) قد اختلَّ فلم يعد يطيع الحركة التي يحرّكهُ بها وشاهد انَّ الجزء الاسفل من السفينة قد ضعف جدًّا فصار يتوقع من دقيقة الى اخرى حدوث ثقب تدخل منهُ المياه . وبما انهُ لم يكن في السفينة سوى مضخّة صغيرة لا تقوى على استخراج

المياه لو دخلت خطر لهُ ان يحوّل سفينتهُ الى مرفإ يأمن فيهِ عليها غير انّها كانت بعيدة وقتئذٍ عن المرافئ والريح تسوقها الى جهة معاكسة لجهة اميركة

وكان فاضل في تلك الاثناء منهوك القوى لما أصابهُ من الدوار والهدام فلمّا سكن البحر قليلًا خرج الى ظهر السفينة وكانت ثيابهُ مبلّلة بما وصل من رشاش الامواج الى محلّ خلوتهِ. فشاهدهُ اولريك وابتدرهُ بالكلام قائلًا: « قد صدق ظني وأصبنا بزوبعة ويا لها من زوبعة »

— أما خفت ؟

— كيف اخاف. أما نحن جميعًا بين يديهِ تعالى ويدي أم حنون تحبّنا جدًّا ؟

— ولمّا تعالت الامواج واوشكت ان تبتلعك أما ارتجفتَ ؟

— بادرتُ حالًا فتلوت فعل الندامة الحقيقيّة طالبًا من الله تعالى صفحًا اذا كنت قد ارتكبتُ ما يهينهُ. ثمّ ناديت مستغيثًا بالبتول المدعوّة كوكب البحر واغمضت عيني وحينئذٍ غمرني الموج وانتظرت الموت وكنت اتذكّر وقتئذٍ والدي المنكود ووالدتي المسكينة واقول في نفسي اني ساجتمع معهما في السماء. غير ان العذراء القديسة أبت ان اموت

— ألا تخشى الموت ايضًا ؟

— ولماذا اخشى الموت وقد افهمتني والدتي اني اذا حافظت على طهارة القلب والنيّة فانّ الله يأخذني الى السماء. أما ترى السماء كم هي جميلة ؟

— من اين تعلم انها جميلة ؟

فنظر اليهِ النوتي الصغير نظر المتعجب من كلامهِ ثم سكت حشمةً وحياء

فقال فاضل: ألا ترى انّ مهنتك شاقّة كثيرًا ومع ذلك فرمحك منها يسير. وشحوب وجهك يدلّني على انك تقاسي منها اشدّ المرارة

— نعم ان مهنتي شاقّة ولكن النوتي خُلق لمثل هذه المشقّة. ولقد علّمتني امي ان أقدّس الاتعاب التي أعانيها كلّ يوم واقدّمها لله لعلّي انها ستكون لي اكليلًا في المنزل العاريّ كما كانت اكليلًا لابي. وتقول « ان ربحي قليل » وهو كما ترى غير أنهُ كافٍ لاعطاء حسنة قدّاس على نيّة والدتي متى تهيّأ لي النزول الى البرّ

— يظهر انك لا تفتكر في المستقبل

أجاب النوتي قائلًا: هل يُوثق بالمستقبل فأننا نحن النوتيَّة قد تعلَّمنا في البحر ان لا نعوّل على الغد. وفي كل دقيقة وساعة يمكن سقوطنا من ساريةٍ او حبل ولاسيما اننا نصعد اليها حفاة الارجل وتكون السفينة وقت اضطراب البحر تتقلَّب الى كلّ جهة وصوب. وكلَّما ارتقيتُ الى حبل اقول في نفسي: « انك يا الله عالم بسريرتي فاشفق عليَّ وانتِ ايتها الام الحنون اكتنفيني تحت ذيل حمايتك حتى اذا متُّ اذهب توًّا الى السماء فاشاهد هناك والدي ووالدتي »

قال هذا ثمَّ اردف: « والآن لا بدَّ لي من مفارقتك لان رئيس النوتيَّة ضربني ذاك اليوم لمَّا رآني وقفت اتكلَّم معك »

— فاذًا هو قاسٍ في معاملتك ؟

— نعم لا يخلو من القسوة. وما يزيدني حزنًا انهُ لا يحب العذراء القديسة كما احبُّها انا لأنهُ بروتستاني المذهب وفوق هذا كلِّهِ هو رديءُ القلب خبيث النيَّة

والحقيقة انَّ النوتي الصغير كان مُضطهدًا من كلّ من في السفينة لانهُ وحدهُ كان كاثوليكيًّا بين جماعة كلّهم من اللوتريين المتعصبين. ولم يكن يدافع عنهُ الَّا الربَّان فهذا كان بالرغم عن جفاء طبعهِ وجهومة وجههِ يميل اليهِ ويودّهُ ودًّا حقيقيًّا. امَّا رئيس النوتية فكان بعكس ذلك يبغضهُ بغضًا ما عليهِ مزيد. الَّا ان اولريك كان يحتمل قسوتهُ بصبر عجيب. وكان هذا الرئيس الذي يدعى هاريس (Harris) كثيرًا ما يحرمهُ الاكل واذا سمح لهُ بشيء يعطيهِ فضلات الآخرين ونفاية مأكولهم. ولم يكن يمرّ يوم دون ان يغلظ لهُ التوبيخ او يضربهُ ضربًا شديدًا. امَّا اولريك فكان يبكي سرًّا مقبِّلًا صورة العذراء. ومقدِّمًا ادعيتهُ واعاناتهِ لهداية مضطهدهِ

وبينما فاضل يهمُّ بالدخول الى حجرتهِ وهو آسف على مغادرة صديقهِ الجديد سمع صوتًا مختنقًا يصخب ثمَّ ظهر رجل طويل القامة عريض الاكتاف متين البنية محمرّ الوجه من كثرة شرب المسكرات فمشى على ظهر السفينة وعيناهُ تقدحان الشرَر فنادى اولريك بصوت أبحّ قائلًا: « لقد كنتُ ظننت اني اتخلَّص منك ايها اللعين » واردف هذه الالفاظ بكثير من التجاديف المنكرة التي لا ينطق بها الَّا فمٌ متدنّس

امَّا اولريك فما تجاسر على الجواب

ثمَّ استتبع هاريس كلامهُ قائلًا:

« لمّا كان الرّبان قد التقطك ايها الردي لزمني ان أُعنى بتهذيبك وتقويمك. ويا ليتهُ لم يفعل وتركك تموت على قبر امّك. واذا فار غضبي عليك فاعلم ان عذراءك القديسة لا تخلّصك من بين يدي »

قال هذا التجديف وانقضّ عليهِ ليضربهُ

امّا فاضل الذي كان يرى ويسمع فهجم من فورهِ وقام بين ذاك الرجل الوحشي والنوتي اولريك والتفت الى هاريس قائلًا: « اياك ان تمدّ اليهِ يدًا »

فتعجب هاريس في بادئ الامر من تعرّض فاضل لهُ وسألهُ ببرودة: « من تكون انت »؟

فقال فاضل: « لا يعنيك ان تعرف من انا ولكن اياك ان تمدّ الى الولد يدًا »

— الا تعلم ان هذا الولد في حوزتي وتحت سلطتي ؟

— كلّا انهُ ليس تحت سلطة احد

— بماذا احسن اليك حتى تدافع عنهُ ؟

— وبماذا اساء اليك حتى تعاملهُ بهذه القسوة ؟

— انّ اساءتهُ لي عظيمة جدًا. فقد وشى عليّ لدى الرّبان اني كذّاب وسرّاق

فعندها صرخ اولريك قائلًا: « اني لم انطق بشيء من هذا اصلًا »

— أتنكر ؟ فسوف نرى من هو المحقّ منّا

ثمّ وثب عليهِ ليضربهُ فحال بينهما فاضل قائلًا:

— حذّرتك من ان تمدّ يدك الى هذا الولد

— من كان مثلك لا يمنعني عنهُ

قال هذا ودفع فاضلًا دفعةً قويّةً فألقاهُ على الارض وانقضّ على اولريك يضربهُ ويرفسه حتى صرخ صرخة عظيمة

وكان النوتية متفرّقين وكلّ واحد منهم مهتمّ بعملهِ فلمّا سمعوا الصيحة تجمّعوا ليروا ما يكون فشاهدوا رئيسهم يضرب اولريك ضربًا وحشيًا غير انهم لمّا كانوا متعودين ان يروا منهُ كل يوم مثل هذه الفظاعات اخذوا يقهقهون ضحكًا على اولريك وفاضل الذي اراد الدفاع عنهُ. وسبب ذلك ان الجميع كانوا يهابون هاريس ويتخوّفون بطشهُ ويعرفون انّ الويل يحلّ بمن لا يطيعهُ. هذا فضلًا عن انهم كانوا قد اشمأزّوا من التفات الرّبان

الى الغلام المذكور ولذلك وقفوا ينتظرون نهاية الامر دون ان يتوسّطوا فيهِ

غير انَّ الرَّبان كان واقفاً في تلك الساعة في اعلى السفينة فشاهد كلّ ما جرى ورأى كيف حال فاضل بين ونيس النوتيَّة والغلام وكيف دفعهُ هاريس تلك الدفعة المؤلمة والقاهُ على سطح المركب متوجّعاً

وكان الرَّبان يعتبر فاضلاً لانهُ كان ينفق عن سعةٍ ولهذا عظم عليهِ ان يتحمَّل اهانة كهذه من بحَّارٍ اطار الشراب لبَّهُ

ففي الحال بادر الى النزول وشاهد الغلام اولريك وقد صبغ الدم وجههُ . فصفر فجاء اليهِ اربعة من النوتية فامرهم ان يقبضوا على هاريس ويكبّلوهُ بالاغلال

وحينئذٍ دارت بينهم وبين هاريس معركة هائلة غير انهم كانوا اقوياء واشداء فقلبوهُ وقيَّدوا يديهِ ورجليهِ وحملوهُ الى داخل السفينة

حينئذٍ التفت الرَّبان الى الغلام اولريك قائلاً: ارى الدم يقطر بكثرة من انفك ؟

فقال اولريك: « انهُ شيء لا يُذكر وقليل من الماء البارد يقطعهُ » . ثم انهُ برقَّة تسحر العقول اتبع ذلك بهذه الكلمات :

« انَّ هاريس تعب كثيرًا بينما كانت سفينتنا في خطر فاراد ان يجدّد قواهُ غير ان الشراب خانهُ وعليهِ فليس هو مسؤولاً بكلّ ما عملهُ . وفضلاً عن كل هذا ترى انهُ لم يُلحق بي اذًى »

فقال الرَّبان: يا لك من غلام صالح النيَّة لا يغيّر صلاحهُ شيء . ثم التفت الى فاضل فرأى الدمع يترقرق في عينيهِ فخاطبهُ بقولهِ : « لو كان النوتية دائمًا نظير هذا النوتي لكنتُ اسعد الناس عيشةً »

كنت قد قبلتُ اولريك شقيقاً عليهِ في باخرتي التي كنتُ اسافر عليها في سواحل ارلندة ومذ ذاك لحق بي في جميع اسفاري وكنتُ كلَّما عاشرتهُ وخبرتُ اخلاقهُ ازيد محبَّةً لهُ وانعطافاً اليهِ بالرغم عن جفاء طبعي الذي لا يقبل التليين بسهولة »

قال فاضل : انَّ اولريك ايها القبطان قصَّ عليَّ خبر وفاة والدتهِ فذهب كلامهُ من قلبي كلَّ مذهب ولهذا وثبتُ للدفاع عنهُ لمَّا رأيتهُ على وشك السقوط بين يدي هاريس

— هاريس خالٍ من القلب ومجرَّد من كلّ عاطفة فيكذب ويسرق دون خجل

— كان يتشكَّى من اولريك انهُ يغتابهُ ويطعن في حقّهِ

— هي دعوى كاذبة لاني مع طول عشرتي لاولريك لم يكلمني عنهُ قطعاً. ولكن بما اني رددتُ كيدهُ في نحرهِ ولم يكن قادرًا عليَّ اراد ان يتشفَّى من رجل بارّ. ثم انَّ لي عينين أبصر بهما ولا احتمل ان يخدعني احد. ولكنهُ متى اشأزَّ الانسان من آخر ونفر منهُ فبالطبع يسوء فيهِ ظنُّهُ وتخبث عليهِ نيَّاتهُ. آه يا ليتهُ يعلم اني إجابةً لطلب اولريك والحاحهِ أبقيتهُ في باخرتي ولكني أعدك بانني لا ابقيهِ عندي زمنًا طويلًا

— ومع كلّ هذا فقد حامى اولريك عنهُ ؟

« نعم فانهُ امس واليوم ما زال يبتهل اليَّ للعفو عن جريمتهِ وتأخير طردهِ الى وقت وصول السفينة لمحلّ قريب من وطنهِ. وهو يقول لي: ماذا يحلّ بهذا المسكين اذا تُرك وحدهُ في هذه النواحي المتجمِّدة وليس بين يديهِ فلس وكل شيء فيها غالٍ. فانهُ لا شك يموت من الجوع والشقاء. ثمّ انَّ لهُ والدةً يتفطَّر قلبها حزنًا وأسفًا اذا علمت بشيء من ذلك

« ولقد ادهشني هذا الكلام الذي سمعتهُ من فم ولدٍ لاسيما واني عالم بان هاريس يبغضهُ ويمقتهُ كثيرًا. ولذلك أثَّر كلامهُ في قلبي ملينًا صلابتهُ ورغبت في مشاهدة ما سيجري لأرى هل تلين فظاظة هريس بازاء رقة ولطف اولريك لاسيما واني كنت محتاجًا الى هاريس في شؤون السفينة لما هو عليهِ من الذكاء وشدَّة الساعد مع درايتهِ باحوال البحر. ثم ان مَن عندنا من النوتية هو دون العدد اللازم لنا للقيام بالاشغال كلها. وبناء عليهِ احتفظت بهاريس وقد رأيتَ انهُ في اثناء الزوبعة كان لنا نعم العون »

قال فاضل: الا ترى ايها الربّان ان الريح ستسكن واننا سنصل قريبًا بحمد الله احد الموانئ فنأمن ؟

— لست حتى الآن آمنًا عواقب الزوبعة فان الريح صدمت سفينتنا صدمة قويَّة اضرَّت بها ولا تزال تعاكس مسيرنا وتحولنا الى غير الجهة التي نقصدها. وما ادراك اذا كان في البحر هنا بحرٌ تحت الماء يسوقنا الى بلاد مجهولة

ثم انَّ الربّان دعا فاضلًا لمرافقتهِ الى المرقب فرقي معهُ السلم ولكن بعناء لاضطراب البحر فلمَّا بلغ قمَّتهُ وقعت عينهُ على مشهد بديع فبانت لهُ السفينة كقلنسد مثل جوزة صغيرة ملقاة في وسط اليمّ وهي تتقلَّب في وسط بحر عجَّاج يتلاطم بالامواج لا تظهر لهُ نهاية معلومة ولا حدود محصورة. وكانت السفينة مع انكسار ساريتها تشقّ

الامواج والريح لا تزال تصفر صفيرًا هائلًا من جهة الغرب وتتلاعب بما بقي من قلوس السفينة التي كانت تمشي زائفة عن خطّ مسيرها بسرعة لا تقلّ عن عشرة اميال في الساعة

اما فاضل فوجم ساكتًا امام هذا المشهد المخيف ثم سأل الربّان قائلًا: اتظنّ اننا ما زلنا بعيدين عن البرّ ؟

فتح الربّان خارطةً بحريّةً كبيرة وانكبّ عليها. فقال فاضل: اين نحن الان ؟

— لا ادري بالتمام وها قد مضى عليّ يومان دون ان اتمكّن من رصد ارتفاع الشمس لعدم ظهورها. اما الابرة المغنطيسيّة فقد كانت حركتها حائرةً في وقت الزوبعة حتى اني لم استطع تصديقها. وقد كان سفرنا من سان ميشل يوم الاثنين والآن نحن في يوم الخميس وعلى ظني اننا على خط الدرجة الخمسين من الطول الشمالي. واذا استمرّ المجرى في قوّته لا بُدّ لنا ان نبلغ الى برّ آمنة

وبينما القبطان يقول ذلك سمع صوت النوتي المكلّف بالمراقبة يصرخ: «البرّ البرّ». فاهتزّ فاضل طربًا لدى سماع الصوت وشخص ببصره الى الأفق لكنّهُ لم يرَ شيئًا

— أترى البرّ ايُّها السيّد الربّان فاني مع تحديقي لا ارى غير سماء وماء ؟

— لستَ معتادًا على الرصد يا فاضل فخذ هذه النظارة وابصر

فنظر فاضل واذا بشاطئ كثير الرؤوس والصخور لاح لهُ من جهة الغرب فسرَّ بهذا المنظر ثم ناول النظارة الى الربّان فتعرف الارض واذا هي جزيرة كانت الريح تسوق اليها السفينة كالقذف

وكانوا كلّما اقتربوا يزيد البرّ ظهورًا وقد لاح لهم خليج على الشاطئ الشرقي غير انّ الربّان كان يوجس خوفًا لما يرى من شدّة الريح وقوّة مجرى المياه. وخصوصًا لما يشاهد من الصخور البارزة فوق وجه الماء. فاخذ يفكر في الطريقة التي يستطيع بها التخلّص من اصطدام السفينة بها. ومع بليغ اجتهادهِ لم يقدر على ضبط سيرها لان السكّان لم يكن يطاوعهُ فأمر بتخفيف النار. فسارت السفينة ببعض الهدوء مارّةً بين رأسين يشبهان مرفأً طبيعيًا حتى اذا ادركوا وسط الخليج سُمع لها صوت قرقعة هائل. وقبل ان يسمح لهم الوقت بمداركة الامر توارت السفينة عن العيان غائصةً في اللجة

(ستأتي البقيّة)